الفصل الرابع

قيل له : فما حقيقة هذه الحقيقة ؟ وما صفة هذا الجوهر ؟ وما وجه تعلقه بالبدن ؟ أهو داخل فيه أو خارج منه ومتصل به ، أو منفصل عنه ؟؟ ..

فقال – رحمه الله – : لا هو داخل ، ولا هو خارج ، ولا هو متصل ، ولا هو منفصل . لأن مصحح الاتصاف بالاتصال والانفصال : الجسمية والتحيز ، وقد انتفى عنه ، فانفات عن الضدين ، كما أن الجماد لا هو عالم ، ولا هو جاهل ؛ لأن مصحح العلم والجهل : الحياة ، فإذا انتفت انتفى الضدان .

قيل : فهل هو فى جهة ؟ .

قال : هو مبرأ عن الحلول فى المَحَالِّ ، والاتصال بالأجسام من الاختصاص بالجهات ؛ فإن كلَّ ذلك صفات الأجسام وأعراضها وهو ليس بجسم ولا عرض فى جسم ، بل هو مبرأ عن هذه العوارض .

فقيل له : لم منع الرسول ﷺ من إفشاء هذا السر ، وكشف حقيقة الروح ؟.

فقال – رحمه الله ــ: لأن الأفهام لاتحتمله ؛ لأن الناس قسمان : عوام وخواص . أما من غلب على طبعه العامية ، فهذا لايقبله ، ولا يصدق به ، فى وصفه الله – تعالى – فكيف يصدق به فى حق روح الإنسان ؟! ولهذا أنكرت الكرامية والحنبلية .. ومن كانت العامية أغلب عليه ذلك ، وجعل الإله جسماً إذا لم يعقل موجوداً إلا متجسماً مشاراً إليه ، ومن ترقى عن العامية قليلاً ، نفى الجسمية وأثبت الجهة ، وترقى عن هذه العامية الأشعرية والمعتزلة ، فأثبتوا موجوداً لا فى جهة ...

فقيل له : فلم لايجوز كشف هذا السر مع هؤلاء ؟

فقال : لأنهم أحالوا هذه الصفة لغير الله – تعالى – فإذا ذكرت معهم كفروك . وقالوا : إنك تصف نفسك بما هو صفة الإله على الخصوص ، فكأنك تدعى الإلهية لنفسك .

فقيل له : فلم أحالوا أن تكون هذه الصفة لله – تعالى – ولغير الله أيضاً ؟

فقال : لأنهم قالوا : كما يستحيل فى ذوات المكان أن يجتمع اثنان فى مكان واحد ، يستحيل أن يجتمعا أيضاً فى لا مكان ؛

لأنه إنما استحال اجتماع جسمين فى مكان واحد ، لأنه لو اجتمعا لم يتميزا أحدهما عن الآخر . فكذلك لو وجد اثنان كل واحد ليس فى مكان ، فلم يحصل التمييز والفرقان ، ولهذا أيضاً قالوا : لا يجتمع سوادان فى محل واحد ، حتى قيل : المثلان يتضادان .

فقيل له : فهذا إشكال قوى فما جوابه ؟.

فقال : إنهم اخطأوا حيث ظنوا أن التمييز لا يحصل إلا بالمكان ، بل يحصل التمييز بثلاثة أمور :

أحدها : بالمكان لجسمين فى مكانين .

والثانى : بالزمان كسوادين فى جوهر واحد فى زمانين .

والثالث : بالحد والحقيقة كالأعراض المختلفة فى محل واحد ، مثل اللون ، والطعم ، والبرودة ، والرطوبة ، فى جسم واحد . فإن المحل لها واحد ، والزمان واحد . لكن هذه مختلفة الذوات بحدودها وحقائقها ، فيتميز الطعم عن اللون بذاته ، لا بمكان وزمان ، ويتميز العلم عن الإرادة والقدرة بذاته ، وإن كان الجميع كشىء واحد ، فإذا كان يتصور أعراض مختلفة الحقائق فى محل واحد ، فأن يتصور أشياء مختلفة الحقائق بذواتها فى غير مكان أولى .

فقيل : ههنا دليل آخر على إحالة ماذكرتموه أظهر من

طلب التفرقة ، وهو أن هذا تشبيه ؛ لأنه إثبات لأخص وصف الله – تعالى – فى حق الروح .

فقال : هيهات ، فإن قولنا : الإنسان حى ، عالم ، سميع ، بصير ، قادر ، متكلم . والله – تعالى – كذلك ، ليس فيه تشبيه ؛ لأنه ليس ذلك أخص وصف الإله ، بل أخص وصفه . أنه قيوم ، أى : هو قائم بذاته ، وكل ماسواه قائم به ، وأنه موجود بذاته لا بغيره ، وكل ماسواه موجود به لا بذاته ، بل ليس للأشياء من ذواتها إلا العدم ، وإنما لها الوجود من غيرها على سبيل العارية . والوجود لله – تعالى – ذاتى ليس بمستعار . وهذه الحقيقة – أعنى القيومية – ليس إلا لله تعالى .

قيل له : ذكرت معنى التسوية ، والنفخ ، والروح . ولم تذكر معنى النسبة فى الروح ، وأنه لم قال : « من روحى » ؟ ولم نسبه إلى نفسه ؟ فإن كان لأن وجوده به ، فجميع الأشياء كذلك ، ولم نسب البشر إلى الطين ؛ فقال : ﴿ إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴾[٦] ثم قال : ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى ﴾[٧] . وإن كان معناه أنه جزء من الله – تعالى –

---

٦ ــ سورة ص : الآية رقم ٧١ .

٧ ــ سورة الحجر : الآية رقم ٢٩ . وسورة صٓ : الآية رقم ٧٢ .

فاض على القالب كما يفيض المعطى المال على السائل فيقول : أفضت عليه من مالى . فهذا تجزئة لذات الله تعالى .

وقد قال : أبطلتم هذا ، وذكرتهم أن إفاضته ليس بمعنى انفصال جزء .

فقال – رحمه الله ــ : هذا كقول الشمس لو نطقت به ، وقالت : أفضت على الشمس من نورى ، فيكون صدقا ، ويكون معنى النسبة : أن النور الحاصل من جنس نور الشمس بوجه من الوجوه ، وإن كان فى غاية الضعف بالإضافة إليه . وقد عرفت أن الروح منزه عن الجهة والمكان ، وفى قوته العلم بجميع الأشياء والاطلاع عليها ، وهذه مضاهاة ومناسبة . فلذلك خصص بالإضافة ، وهذه المضاهاة ليست للجسمانيات أصلاً .

فقيل له : فما معنى قوله – تعالى – : ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى ﴾[٨] وما معنى عالم الأمر ، وعالم الخلق ؟ .

فقال : كل مايقع عليه مساحة وتقدير – وهى الأجسام وعوارضها – يقال : إنه من عالم الخلق . والخلق ههنا بمعنى التقدير لا بمعنى الإيجاد والإحداث . يقال : خلق الشىء ، أى : قدره .. قال الشاعر :

---

٨ ــ سورة الإسراء : الآية رقم ٨٥ .

وبعض الخلق يخلق ثم يفـرى

أى : يقدر الأديم ، ثم يقطع . ومالا كمية له ، ولاتقدير . فيقال : إنه أمر ربانى . وذلك للمضاهاة التى ذكرناها . وكل مامن هذا الجنس من أرواح البشر ، وأرواح الملائكة ، يقال : إنه من عالم الأمر . فعالم الأمر عبارة عن الموجودات الخارجة عن الحس ، والخيال ، والجهة ، والمكان ، والتحيز . وهى مالا يدخل تحت المساحة ، والتقدير ، لانتفاء الكمية عنه .

فقيل له : أتوهم أن الروح ليس مخلوقا فهو قديم ؟

فقال : قد توهم هذا جماعة ، وهو جهل . بل نقول : الروح غير مخلوق ، يعنى أنه غير مقدر بكمية ؛ فإنه لا ينقسم ، ولايتحيز ، لكنه مخلوق ، بمعنى أنه حادث[٩] ، وليس بقديم . وبرهان حدوثه طويل ومقدماته كثيرة . ولكن الحق : أن الأرواح البشرية حدثت عند استعداد النطفة للقبول ، كما حدثت الصورة فى المرآة بحدوث الصقالة . وإن كان ذو الصورة سابق الوجود على الصقالة .

---

(٩) يقول ابن القيم فى المسألة السابعة عشرة

وهى : هل الروح قديمة أو محدثة مخلوقة ؟ من كتابه (الروح) :

وإذا كانت محدثة مخلوقة وهى من أمر الله فكيف يكون أمر الله محدثاً مخلوقاً ؟ وقد أخبر –

سبحانه – أنه نفخ فى ادم من روحه ، فهذه الإضافة إليه هل تدل على أنها قديمة أم لا ؟ وماحقيقة هذه الإضافة ؟ فقد أخبر عن آدم أنه خلقه بيده ونفخ فيه من روحه فأضاف اليد والروح إليه إضافة واحدة .

فهذه مسألة زل فيها عالم ، وضل فيها طوائف من بنى آدم . وهدى الله أتباع رسوله فيها للحق المبين ، والصواب المستبين ، فأجمعت الرسل – صلوات الله وسلامه عليهم – على أنها محدثة مخلوقة مصنوعة مربوبة مدَبَّرَةٌ . هذا معلوم بالاضطرار من دين الرسل – صلوات الله وسلامه عليهم – كما يعلم بالاضطرار من دينهم أن العالم حادث ، وأن معاد الأبدان واقع ، وأن الله وحده الخالق ، وكل ماسواه مخلوق له ، وقد انطوى عصر الصحابة والتابعين وتابعيهم وهم القرون الفضيلة على ذلك من غير اختلاف بينهم فى حدوثها وأنها مخلوقة ، حتى نبغت نابغة ممن قصر فهمه فى الكتاب والسنة فزعم أنها قديمة غير مخلوقة ، واحتج بأنها من أمر الله وأمره غير مخلوق ، وبأن الله – تعالى – أضافها إليه كما أضاف إليه علمه وكتابه وقدرته وسمعه وبصره ويده ، وتوقف آخرون فقالوا : لانقول مخلوقة ولا غير مخلوقة .

وسئل عن ذلك حافظ أصبهان أبو عبد الله بن منده ، فقال : أما بعد فإن سائلا سألنى عن الروح التى جعلها الله – سبحانه – قوام نفس الخلق وأبدانهم ، وذكر أن أقواما تكلموا فى الروح وزعموا أنها غير مخلوقة وخص بعضهم منها أرواح القدس وأنها من ذات الله ، قال : وأنا أذكر اختلاف أقاويل متقدميهم ، وأبين مايخالف أقاويلهم من الكتاب والأثر وأقاويل الصحابة والتابعين وأهل العلم ، وأذكر بعد ذلك وجوه الروح من الكتاب والأثر ، وأوضح خطأ المتكلم فى الروح بغير علم ، وأن كلامهم يوافق قول جهم وأصحابه . فنقول – وبالله التوفيق – : إن الناس اختلفوا فى معرفة الأرواح ومحلها من النفس :

(فقال) بعضهم : الأرواح كلها مخلوقة ، وهذا مذهب أهل الجماعة والأثر واحتجوا بقول النبى ﷺ : « **الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف** » والجنود المجندة لاتكون إلا مخلوقة .

(وقال) بعضهم : الأرواح من أمر الله ، أخفى الله حقيقتها وعلمها عن الخلق واحتجوا بقول الله تعالى : ﴿ **قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى** ﴾ .

(وقال) بعضهم : الأرواح نور من أنوار الله – تعالى – وحياة من حياته ، واحتجت بقول النبى – صلى الله عليه وآله وسلم – : « **إن الله خلق خلقه فى ظلمة وألقى عليهم من نوره** » ثم ذكر الخلاف فى الأرواح هل تموت أم لا ؟ وهل تعذب مع الأجساد فى البرزخ وفى مستقرها بعد الموت ؟ وهل هى النفس أو غيرها .

(وقال) محمد بن نصر المروزى فى كتابه : تأول صنف من الزنادقة وصنف من الروافض فى روح آدم ماتأولته النصارى فى روح عيسى ، وما تأوله قوم من أن الروح انفصل من ذات الله فصار فى المؤمن ، فعبد صنف من النصارى عيسى ومريم جميعاً ؛ لأن عيسى عندهم روح من الله صار فى مريم ، فهو غير مخلوق عندهم .

وقال صنف من الزنادقة وصنف من الروافض : إن روح آدم مثل ذلك ، إنه غير مخلوق ، وتأولوا قوله تعالى : ﴿ **ونفخت فيه من روحى** ﴾ وقوله تعالى ﴿ **ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ** ﴾ فزعموا أن روح آدم ليس بمخلوق ، كما تأول من قال : إن النور من الرب غير مخلوق ، قالوا : ثم صاروا بعد آدم فى الوصى بعده ، ثم هو فى كل نبى ووصى إلى أن صار فى على ثم فى الحسن والحسين ، ثم فى كل وصى وإمام فبه يعلم الإمام كل شىء ولا يحتاج أن يتعلم من أحد .

ولا خلاف بين المسلمين أن الأرواح التى فى آدم وبنيه وعيسى ومن سواه من بنى آدم كلها مخلوقة لله خلقها وأنشأها وكونها واخترعها ثم أضافها إلى نفسه ، كما أضاف إليه سائر خلقه قال تعالى ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُم مَّافِى السَّمَٰوَاتِ وَمَافِى الأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ** ﴾ .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : روح الآدمى مخلوقة مبدعة باتفاق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة ، وقد حكى إجماع العلماء على أنها مخلوقة غير واحد من أئمة المسلمين مثل محمد بن نصر المروزى الإمام المشهور الذى هو من أعلم أهل زمانه بالإجماع ولا اختلاف ، وكذلك أبو محمد بن قتيبة قال فى (كتاب اللفظ) : لما تكلم على الروح قال : النسم : الأرواح . قال : وأجمع الناس على أن الله – تعالى – هو فالق الحبة وبارىء النسمة ، أى : خالق الروح . وقال أبو إسحاق بن شاقلا فيما أجاب به فى هذه المسألة : سألت – رحمك الله – عن الروح مخلوقة هى أو غير مخلوقة ؟ قال : وهذا مما لايشك فيه من وفق للصواب أن الروح من الأشياء المخلوقة ، وقد تكلم فى هذه المسألة طوائف من أكابر العلماء والمشايخ وردوا على من يزعم أنها غير مخلوقة ، وصنف الحافظ أبو عبد الله بن منده فى ذلك كتاباً كبيراً ، وقبله الإمام محمد بن نصر المروزى وغيره ، والشيخ أبو سعيد الخراز وأبو يعقوب النهرجورى ، والقاضى أبو يعلى ، وقد نص على ذلك الأئمة الكبار واشتد نكيرهم على من يقول ذلك فى روح عيسى ابن مريم فكيف بروح غيره ؟! كما ذكره الإمام أحمد فيما كتبه فى مجلسه فى الرد على الزنادقة والجهمية ، ثم إن الجهمى ادعى أمراً فقال : أنا أجد آية فى كتاب الله مما يدل على أن القرآن مخلوق : قول الله تعالى : ﴿ **إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه** ﴾ وعيسى مخلوق ، قلنا له : إن الله تعالى منعك الفهم للقرآن ، إن عيسى تجرى عليه ألفاظ لاتجرى على القرآن لأنا نسميه مولوداً وطفلا وصبيًّا

وغلاماً يأكل ويشرب وهو مخاطب بالأمر والنهى يجرى عليه الخطاب والوعد والوعيد ، ثم هو من ذرية نوح ومن ذرية إبراهيم فلا يحل لنا أن نقول فى القرآن مانقول فى عيسى ، فهل سمعتم الله يقول فى القرآن ماقال فى عيسى ؟ ولكن المعنى فى قوله تعالى : ﴿ **إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه** ﴾ فالكلمة التى ألقاها إلى مريم حين قال له : كن ، فكان عيسى بكن ، وليس عيسى هو كن ، ولكن كان بكَن . فكن من الله قول ، وليس كن مخلوقاً ، وكذبت النصارى والجهمية على الله فى أمر عيسى ، وذلك أن الجهمية قالوا : روح الله وكلمته إلا أن كلمته مخلوقة . وقالت النصارى : عيسى روح الله وكلمته من ذاته كما يقال : هذه الخرقة من هذا الثوب ، قلنا نحن : إن عيسى بالكلمة كان ، وليس عيسى هو الكلمة ، وإنما الكلمة قول الله – تعالى– : كن . وقوله : ﴿ **وروح منه** ﴾ يقول : من أمره كان الروح فيه كقوله تعالى : ﴿ **وسخر لكم مافى السموات ومافى الأرض جميعاً منه** ﴾ يقول : من أمره ، وتفسير روح الله إنما معناها بكلمة الله خلقها ، كما يقال : عبد الله ، وسماء الله ، وأرض الله ، فقد صرح بأن روح المسيح مخلوقة فكيف بسائر الأرواح ؟! وقد أضاف الله إليه الروح الذى أرسله إلى مريم وهو عبده ورسوله ولم يدل على ذلك أنه قديم غير مخلوق فقال تعالى : ﴿ **فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشراً سويا . قالت إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا . قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً** ﴾ فهذا الروح هو روح الله وهو عبده ورسوله .

والذى يدل على خلقها وجوه :

(**الوجه الأول**) : قول الله تعالى : ﴿ **الله خالق كل شىء** ﴾ فهذا اللفظ عام لاتخصيص فيه بوجه ما ولايدخل فى ذلك صفاته ، فإنها داخلة فى مسمى اسمه ، فالله – سبحانه – هو الإله الموصوف بصفات الكمال ، فعلمه وقدرته وحياته وإرادته وسمعه وبصره وسائر صفاته داخل فى مسمى اسمه ليس داخلا فى الأشياء المخلوقة كما لم تدخل ذاته فيها ، فهو – سبحانه – بذاته وصفاته الخالق وماسواه مخلوق .

ومعلوم قطعاً أن الروح ليست هى الله ولا صفة من صفاته ، وإنما هى مصنوع من مصنوعاته ، فوقوع الخلق عليها كوقوعه على الملائكة والجن والإنس .

(**الوجه الثانى**) : قوله تعالى لزكريا : ﴿ **وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً** ﴾ وهذا الخطاب لروحه وبدنه ليس لبدنه فقط ؛ فإن البدن وحده لايفهم ولا يخاطب ولا يعقل وإنما الذى يفهم ويعقل ويخاطب هو الروح .

(**الوجه الثالث**) : قوله تعالى : ﴿ **والله خلقكم وماتعملون** ﴾ .

(**الوجه الرابع**) : قوله تعالى : ﴿ **ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم** ﴾ وهذا الإخبار إنما يتناول أرواحنا وأجسادنا كما يقوله الجمهور ، وإما أن يكون واقعا على الأرواح قبل خلق الأجساد كما يقوله من يزعم ذلك ، وعلى التقدير فهو صريح فى خلق الأرواح .

(**الوجه الخامس**) : النصوص الدالة على أنه – سبحانه – ربنا ورب آبائنا الأولين ورب كل شيء ، وهذه الربوبية شاملة لأرواحنا وأبداننا ، فالأرواح مربوبة له مملوكة ، كما أن الأجسام كذلك وكل مربوب مملوك فهو مخلوق .

(**الوجه السادس**) : أول سورة فى القرآن وهى الفاتحة تدل على أن الأرواح مخلوقة من عدة أوجه :

أحدها : قوله تعالى : ﴿ **الحمد لله رب العالمين** ﴾ والأرواح من جملة العالم فهو ربها .

الثانـى : قوله تعالى : ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾ فالأرواح عابدة له مستعينة ، ولو كانت غير مخلوقة لكانت معبودة مستعانا بها .

الثالـث : أنها فقيرة إلى هداية فاطرها وربها تسأله أن يهديها صراطه المستقيم .

الرابـع : أنها منعم عليها مرحومة ، ومغضوب عليها وضالة شقيـة ، وهذا شأن المربوب والمملوك ، لا شأن القديم غير المخلوق .

(**الوجه السابع**) : النصوص الدالة على أن الإنسان عبد بجملته ، وليست عبوديته واقعة على بدنه دون روحه ، بل عبودية الروح أصل وعبودية البدن تبع كما أنه تبع لها فى الأحكام ، وهى التى تحركه وتستعمله وهو تبع لها فى العبودية .

(**الوجه الثامن**) : قوله تعالى : ﴿ **هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً** ﴾ فلو كانت روحه قديمة لكان الإنسان لم يزل شيئاً مذكوراً فإنه إنما هو إنسان بروحه لا ببدنه فقط كما قيل :

ياخادم الجسم كم تشقى بخدمته فأنت بالروح لا بالجسم إنسان

(**الوجه التاسع**) النصوص الدالة على أن الله – سبحانه – كان ولم يكن شيء غيره كما ثبت فى صحيح البخارى من حديث عمران بن حصين أن أهل اليمن قالوا : يارسول الله جئناك لنتفقه فى الدين ونسألك عن أول هذا الأمر ، فقال : **كان الله ولم يكن شيء غيره ، وكان عرشه على الماء** ، وكتب فى الذكر كل شيء – فلم يكن مع الله أرواح ولا نفوس قديمة يساوى وجودها وجوده ، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً ، بل هو الأول وحده لايشاركه غيره فى أوليته بوجه .

(**الوجه العاشر**) النصوص الدالة على خلق الملائكة ، وهم أرواح مستغنية عن أجساد تقوم بها ، وهم مخلوقون قبل خلق الإنسان وروحه ، فإذا كان الملك الذى يحدث الروح فى جسد ابن آدم بنفخته مخلوقاً فكيف تكون الروح الحادثة بنفخه قديمة ؟ وهؤلاء الغالطون يظنون أن الملك يرسل إلى الجنين بروح قديمة أزلية ينفخها فيه ؛ كما يرسل الرسول بثوب إلى الإنسان يلبسه إياه ، وهذا ضلال وخطأ ، وإنما يرسل الله – سبحانه – إليه الملك فينفخ فيه نفخة تحدث له الروح بواسطة تلك النفخة ، فتكون النفخة هى سبب حصول الروح وحدوثها له ، كما كان الوطء والإنزال سبب تكوين جسمه ، والغذاء سبب نموه ، فمادة الروح من نفخة الملك ، ومادة الجسم من صب الماء فى الرحم ، فهذه مادة سماوية وهذه مادة أرضية ، فمن الناس من تغلب عليه المادة السماوية فتصير روحه علوية شريفة تناسب الملائكة ، ومنهم من تغلب عليه المادة الأرضية فتصير روحه سفلية ترابية مهينة تناسب الأرواح السفلية ، فالملك أب لروحه والتراب أب لبدنه وجسمه .

(**الوجه الحادى عشر**) حديث أبى هريرة – رضى الله عنه – الذى فى صحيح البخارى وغيره عن النبى – صلى الله عليه وآله وسلم – « **الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف** » والجنود المجندة لا تكون إلا مخلوقة ، وهذا الحديث رواه عن النبى – صلى الله عليه وآله وسلم – أبو هريرة وعائشة أم المؤمنين وسلمان الفارسى وعبد الله ابن عباس وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عمرو وعلى بن أبى طالب وعمرو بن عبسة رضى الله عنهم .

(**الوجه الثانى عشر**) أن الروح توصف بالوفاة والقبض والإمساك والإرسال ، وهذا شأن المخلوق المحدث المربوب ، قال الله – تعالى – : ﴿ **الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ والأنفس هاهنا هى الأرواح قطعاً . وفى الصحيحين من حديث عبد الله بن أبى قتادة الأنصارى عن أبيه قال : سرنا مع رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – فى سفر ذات ليلة فقلنا : يارسول الله لو عرست بنا ، فقال : إنى أخاف أن تناموا فمن يوقظنا للصلاة ؟ فقال بلال : أنا يارسول الله فعرس بالقوم فاضطجعوا واستند بلال إلى راحلته فغلبته عيناه فاستيقظ رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – وقد طلع جانب الشمس ، فقال : يا بلال أين ماقلت لنا ؟ فقال : والذى بعثك بالحق ماأُلقيت على نومة مثلها ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم –: « **إن الله قبض أرواحكم حين شاء وردها حين شاء** » فهذه الروح المقبوضة هى النفس التى يتوفاها الله حين موتها ، وفى منامها التى يتوفاها ملك الموت ، وهى التى تتوفاها رسل الله – سبحانه – وهى التى يجلس الملك

عند رأس صاحبها ويخرجها من بدنه كرها ويكفنها بكفن من الجنة أو النار ويصعد بها إلى السماء فتصلى عليها الملائكة أو تلعنها ، وتوقف بين يدى ربها فيقضى فيها أمره ، ثم تعاد إلى الأرض فتدخل بين الميت وأكفانه فيسأل ويمتحن ويعاقب وينعَّم ، وهى التى تجعل فى أجواف الطير الخضر تأكل وتشرب من الجنة ، وهى التى تعرض على النار غدوا وعشيًّا ، وهى التى تؤمن وتكفر وتطيع وتعصى ، وهى الأمارة بالسوء ، وهى اللوامة ، وهى المطمئنة إلى ربها وأمره وذكره ، وهى التى تعذب وتنعم وتسعد وتشقى وتحبس وترسل وتصح وتسقم وتلذ وتألم وتخاف وتحزن ، وما ذاك إلا سمات مخلوق مُبْدَع ، وصفات منشأ مخترع ، وأحكام مربوب مدبَّر مصرَّف تحت مشيئة خالقه وفاطره وبارئه ، وكان رسول الله – صلى الله عليه وآله وسلم – يقول عند نومه : « **اللهم أنت خلقت نفسى وأنت توفاها ، لك مماتها ومحياها ، فإن أمسكتها فارحمها ، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين** » وهو تعالى بارىء النفوس كما هو بارىء الأجساد ، قال – تعالى –: ﴿ **ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير** ﴾ قيل : من قبل أن نبرأ المصيبة ، وقيل : من قبل أن نبرأ الأرض ، وقيل : من قبل أن نبرأ الأنفس وهو أولى ؛ لأنه أقرب مذكور إلى الضمير ، ولو قيل : يرجع إلى الثلاثة ، أى : من قبل أن نبرأ المصيبة والأرض والأنفس لكان أوجه .

وكيف تكون قديمة مستغنية عن خالق محدث مبدع لها وشواهد الفقر والحاجة والضرورة أعدل شواهد على أنها مخلوقة مربوبة مصنوعة وأن وجود ذاتها وصفاتها وأفعالها من ربها وفاطرها ، ليس لها من نفسها إلا العدم ، فهى لاتملك لنفسها ضرّاً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ، لا تستطيع أن تأخذ من الخير إلا ماأعطاها ، وتتقى من الشر إلا ماوقاها ، ولا تهتدى إلى شىء من صالح دنياها وأخراها إلا بهداه ، ولا تصلح إلا بتوفيقه لها وإصلاحه إياها ، ولا تعلم إلا ما علمها ، ولا تتعدى ما ألهمها ، فهو الذى خلقها فسواها وألهمها فجورها وتقواها ، فأخبر – سبحانه – أنه خالقها ومبدعها وخالق أفعالها من الفجور والتقوى ، خلافاً لمن يقول : إنها ليست مخلوقة ، ولمن يقول : إنها وإن كانت مخلوقة فليس خالقاً لأفعالها بل هى التى تخلق أفعالها ، وهما قولان لأهل الضلال والغى .

ومعلوم أنها لو كانت قديمة غير مخلوقة لكانت مستغنية بنفسها فى وجودها وصفاتها وكمالها ، وهذا من أبطل الباطل . فإن فقرها إليه – سبحانه – فى وجودها وكمالها وصلاحها هو من لوازم ذاتها ليس معللا بعلة فإنه أمر ذاتى لها ، كما أن غنى ربها وفاطرها ومبدعها من لوازم ذاته ليس معللا بعلة فهو – سبحانه – الغنى بالذات ، وهى الفقيرة إليه بالذات ، فلا يشاركه – سبحانه – فى غناه مشارك كما لا يشاركه فى قدمه وربوبيته وملكه التام وكماله المقدس مشارك ، فشواهد الخلق والحدوث على الأرواح كشواهده على الأبدان .

وإيجاز هذا البرهان أن الأرواح لو كانت موجودة قبل الأبدان لكانت إما كثيرة ، وإما واحداً ، وباطل وحدتها وكثرتها ، فباطل وجودها . وإنما استحال وحدتها بعد التعلق بالأبدان ؛ لعلمنا ضرورة بأن مايعلمه زيد يجوز أن يجهله عمرو . ولو كان الجوهر العاقل منهما واحداً لاستحال اجتماع المتضادين فيه ، كما يستحيل فى زيد وحده .

قال – تعالى – : ﴿ **ياأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد** ﴾ وهذا الخطاب بالفقر إليه للأرواح والأبدان ، ليس هو للأبدان فقط ، وهذا الغنى التام لله وحده لايشركه فيه غيره ، وقد أرشد الله – سبحانه – عباده إلى أوضح دليل على ذلك بقوله : ﴿ **فلولا إذا بلغت الحلقوم * وأنتم حينئذ تنظرون * ونحن أقرب إليه منكم ولكن لاتبصرون * فلولا إن كنتم غير مدينين * ترجعونها إن كنتم صادقين** ﴾ أى : فلولا إن كنتم غير مملوكين ومقهورين ومربوبين ومجازين بأعمالكم تردون الأرواح إلى الأبدان إذا وصلت إلى هذا الموضع ، أو لاتعلمون بذلك أنها مدينة مملوكة مربوبة محاسبة مجزية بعملها .

وكل ما تقدم ذكره فى هذا الجواب من أحكام الروح وشأنها ومستقرها بعد الموت فهو دليل على أنها مخلوقة مربوبة مدبرة ليست بقديمة .

وهذا الأمر أوضح من أن تساق الأدلة عليه ، ولولا ضلال من المتصوفة وأهل البدع ، ومن قصر فهمه فى كتاب الله وسنة رسوله ، فأتى من سوء الفهم لا من النص ، تكلموا فى أنفسهم وأرواحهم بما دل على أنهم من أجهل الناس بها ، وكيف يمكن من له أدنى مسكة من عقل أن ينكر أمرا تشهد عليه به نفسه وصفاته وأفعاله وجوارحه وأعضاؤه ؟! بل تشهد به السموات والأرض والخليقة : فلله – سبحانه – فى كل ماسواه آية – بل آيات – تدل على أنه مخلوق مربوب ، وأنه خالقه وربه وبارئه ومليكه ، ولو جحد ذلك فمعه شاهد عليه .

ونعنى بالروح الجوهر العاقل ، ومحال كثرتها ؛ لأن الواحد إنما لا يستحيل أن يثنى ، وأن ينقسم ، إذا كان ذا مقدار كالأجسام . فالجسم ينقسم لأنه ذو مقدار ، فله بعض ، فيتبعض . أما مالا بعض له ، ولا مقدار فكيف يقسم ؟.

أما تقدير كثرتها بعد التعلق بالبدن محال ؛ لأنها : إما أن تكون متماثلة ، وإما مختلفة . وكل ذلك محال ، وإنما استحال التماثل ؛ لأن وجود المثلين محال فى الأصل ، ولهذا يستحيل وجود سوادين فى محل ، وجسمين فى مكان واحد . لأن الاثنينية تستدعى مغايرة ، ولا مغايرة ههنا . وسوادان فى محلين جائز ؛ لأن هذا يفارق ذلك فى المحل إذا اختص بمحل لايختص به الآخر . وكذلك يجوز فى محل واحد فى زمانين ؛ إذ لهذا وصف ليس للآخر . وهو الاقتران بهذا الزمان الخاص .

فليس فى الوجود مثلان مطلقا بل بالإضافة ، كقولنا : زيد وعمرو مثلان فى الإنسانية والجسمية ، وسواد الحبر والغراب مثلان فى السوادية ومحال تغايرها ؛ لأن التغاير نوعان :

أحدهما : باختلاف النوع والماهية : كتغاير الماء والنار ، وتغاير السواد والقلم .

والثانى : بالعوارض التى لا تدخل فى الماهية : كتغاير الماء الحار والماء البارد ؛ فإن كان تغاير الأرواح البشرية بالنوع ،

فمحال ؛ لأن الأرواح البشرية متفقة بالحد ، والحقيقة ، وهى نوع واحد . وإن كانت متغايرة بالعوارض فمحال ؛ لأن الحقيقة الواحدة إنما يتغاير عوارضها إذا كانت متعلقة بالأجسام ، منسوبة إليها بنوع . إذ الاختلاف فى أجزاء الجسم ضرورة ، ولو فى القرب من السماء والبعد منه مثلا .

أما إذا لم يكن كذلك كان الاختلاف ، وهذا ربما يحتاج بحقيقة إلى مزيد تقرير . لكن هذا القدر تنبيه عليه .

فقيل له : كيف يكون حال الأرواح بعد مفارقة الأجساد[١٠] ولا تعلق لها بالأجسام . فكيف تكثرت وتغايرت ؟؟

فقال : لأنها اكتسبت بعد التعلق بالأبدان أوصافاً مختلفة فى العلم ، والجهل ، والصفاء ، والكدورة ، وحسن الأخلاق وقبحها . فبقيت متغايرة ، فعقل تكثرها ، بخلاف ماقبل الأجساد فإنه لاسبب لتغايرها .

---

(١٠) يقول ابن القيم :

المسألة الخامسة من كتاب الروح :

وهى أن الأرواح بعد مفارقة الأبدان إذا تجردت بأى شيء يتميز بعضها من بعض حتى تتعارف وتتلاق ؟ وهل تشكل إذا تجردت بشكل بدنها الذى كانت فيه وتلبس صورته أم كيف يكون حالها ؟ .

هذه مسألة لا تكاد تجد من تكلم فيها ، ولايظفر فيها من كتب الناس بطائل ولا غير طائل

ولا سيما على أصول من يقول بأنها مجردة عن المادة وعلائقها وليست بداخل العالم ولا خارجه ولا لها شكل ولا قدر ولا شخص ، فهذا السؤال على أصولهم مما لاجواب لهم عنه ، وكذلك من يقول : هى عرض من أعراض البدن ، فتميزها عن غيرها مشروط بقيامها ببدنها ، فلا تميز لها بعد الموت ، بل لاوجود لها على أصولهم بل تعدم وتبطل باضمحلال البدن كما تبطل سائرصفات الحى ، ولا يمكن جواب هذه المسألة إلا على أصول أهل السنة التى تظاهرت عليها أدلة القرآن والسنة والآثار والاعتبار والعقل ، والقول إنها ذات قائمة بنفسها تصعد وتنزل وتتصل وتنفصل وتخرج وتذهب وتجيء وتتحرك وتسكن ، وعلى هذا أكثر من مائة دليل قد ذكرناها فى كتابنا الكبير فى معرفة الروح والنفس ، وبينا بطلان ماخالف هذا القول من وجوه كثيرة ، وإن من قال غيره لم يعرف نفسه .

وقد وصفها الله – سبحانه وتعالى – بالدخول والخروج والقبض والتوفى والرجوع وصعودها إلى السماء وفتح أبوابها لها وغلقها عنها فقال – تعالى ــ: ﴿ **ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم** ﴾ وقال – تعالى ــ: ﴿ **يآ أيتها النفس المطمئنة * ارجعى إلى ربك راضية مرضية * فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى** ﴾ وهذا يقال لها عند المفارقة للجسد ، وقال – تعالى ــ: ﴿ **ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها** ﴾ فأخبر أنه سوى النفس ، كما أخبر أنه سوى البدن فى قوله : ﴿ **الذى خلقك فسواك فعدلك** ﴾ فهو – سبحانه – سوى نفس الإنسان كما سوى بدنه بل سوى بدنه كالقالب لنفسه ، فتسوية البدن تابع لتسوية النفس ، والبدن موضوع لها كالقالب لما هو موضوع له .

ومن هاهنا يعلم أنها تأخذ من بدنها صورة تتميز بها عن غيرها ، فإنها تتأثر وتنتقل عن البدن كما يتأثر البدن وينتقل عنها ، فيكتسب البدن الطيب والخبث من طيب النفس وخبثها ، وتكتسب النفس الطيب والخبث من طيب البدن وخبثه ، فأشد الأشياء ارتباطاً وتناسباً وتفاعلاً وتأثراً من أحدهما بالآخر الروح والبدن ، ولهذا يقال لها عند المفارقة : اخرجى أيتها النفس الطيبة كانت فى الجسد الطيب النفس ، واخرجى أيتها النفس الخبيثة كانت فى الجسد الخبيث .

وقال الله – تعالى ــ: ﴿ **الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى** ﴾ فوصفها بالتوفى والإمساك والإرسال كما وصفها بالدخول والخروج والرجوع والتسوية ، وقد أخبر النبى – صلى الله عليه وآله وسلم – أن بصر الميت يتبع نفسه إذا قبضت . وأخبر أن الملك يقبضها فتأخذها الملائكة من يده فيوجد لها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض ، أو كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض .

والأعراض لا ريح لها ولا تمسك ولا تؤخذ من يد إلى يد .

وأخبر أنها تصعد إلى السماء ويصلى عليها كل ملك لله بين السماء والأرض ، وأنها تفتح لها أبواب السماء فتصعد من سماء إلى سماء حتى ينتهى بها إلى السماء التى فيها الله - عز وجل - فتوقف بين يديه ويأمر بكتابة اسمه فى ديوان أهل عليين أو ديوان أهل سجين ، ثم ترد إلى الأرض ، وإن روح الكافر تطرح طرحا وأنها تدخل مع البدن فى قبرها للسؤال .

وقد أخبر النبى - صلى الله عليه وآله وسلم -: بأن نسمة المؤمن وهى روحه طائر يعلق فى شجر الجنة حتى يردها الله إلى جسدها .

وأخبر أن أرواح الشهداء فى حواصل طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها ، وأخبر أن الروح تنعم وتعذب فى البرزخ إلى يوم القيامة .

وقد أخبر - سبحانه - عن أرواح قوم فرعون أنها تعرض على النار غدوّاً وعشيّاً قبل يوم القيامة ، وقد أخبر - سبحانه - عن الشهداء بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون ، وهذه حياة أرواحهم ورزقها ، وإلا فالأبدان قد تمزقت ، وقد فسر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - هذه الحياة بأن أرواحهم فى جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى تلك القناديل ، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة فقال : هل تشتهون شيئاً ؟ قالوا : أى شيء نشتهى ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا ؟ فعل بهم ذلك ثلاث مرات ، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا قالوا : نريد أن ترد أرواحنا فى أجسادنا حتى نقتل فى سبيلك مرة أخرى .

(وصح) عنه - صلى الله عليه وآله وسلم - « **أن أرواح الشهداء فى طير خضر تَعْلُقُ من ثمر الجنة** » وتعلق - بضم اللام - أى : تأكل العلقة .

(وقال) ابن عباس : قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « **لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب فى ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مشربهم ومأكلهم وحسن مقيلهم قالوا : ياليت إخواننا يعلمون ماصنع الله لنا ، لئلا يزهدوا فى الجهاد ولاينكلوا عن الحرب ، فقال الله - عز وجل -: أنا أبلغهم عنكم ، فأنزل الله - تعالى - على رسوله - صلى الله عليه وآله وسلم - ﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾** الآيات . رواه الإمام أحمد .

وهذا صريح فى أكلها وشربها وحركتها وانتقالها وكلامها ، وسيأتى مزيد تقرير لذلك عن قريب إن شاء الله تعالى .

وإذا كان هذا شأن الأرواح فتميزها بعد المفارقة يكون أظهر من تميز الأبدان ، والاشتباه بينها أبعد من اشتباه الأبدان ، فإن الأبدان تشتبه كثيراً ، وأما الأرواح فقل ماتشتبه .

يوضح هذا أنا لم نشاهد أبدان الأنبياء والصحابة والأئمة وهم متميزون فى علمنا أظهر تميز ، وليس ذلك التميز راجعاً إلى مجرد أبدانهم وإن ذكر لنا من صفات أبدانهم مايختص به أحدهم من الآخر ، بل التميز الذى عندنا بما علمناه وعرفناه من صفات أرواحهم وما قام بها ، وتميز الروح عن الروح بصفاتها أعظم من تميز البدن عن البدن بصفاته ، ألا ترى أن بدن المؤمن والكافر قد يشتبهان كثيراً وبين روحيهما أعظم التباين والتميز ؟ وأنت ترى أخوين شقيقين مشتبهين فى الخلقة غاية الاشتباه وبين روحيهما غاية التباين ، فإذا تجردت هاتان الروحان كان تميزهما فى غاية الظهور .

وأخبرك بأمر إذا تأملت أحوال الأنفس والأبدان شاهدته عياناً ؟ قلَّ أن ترى بدنا قبيحاً وشكلا شنيعاً إلا وجدته مركباً على نفس تشاكله وتناسبه ، وقل أن ترى آفة فى بدن إلا وفى روح صاحبه آفة تناسبها ، ولهذا يأخذ أصحاب الفراسة أحوال النفوس من أشكال الأبدان وأحوالها فقل أن تخطىء ذلك .

(ويحكى) عن الشافعى – رحمه الله – فى ذلك عجائب .

وقل أن ترى شكلا حسناً وصورة جميلة وتركيباً لطيفاً إلا وجدت الروح المتعلقة به مناسبة له ، هذا مالم يعارض ذلك مايوجب خلافه من تعلم وتدرب واعتياد .

وإذا كانت الأرواح العلوية وهم الملائكة متميزاً بعضهم عن بعض من غير أجسام تحملهم ، وكذلك الجن ، فتميز الأرواح البشرية أولى .